

السيرة النبوية ..

ومن ذلك ما يكشف عنه تحليل مضمون السيرة الشعبية الذي أظهر لنا أن الوجدان الاسلامي طالما لجأ إلى السيرة النبوية ، ولا سيما في أوقات المحن ، ليؤكد على هذه الشخصية الاسلامية من خلال السيرة العطرة . وذلك أن الملاحم الشعبية الباقية من الحضارة السمعية تطالعا بسمة أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حرفة الشاعر الشعبي ، وهي انه يبدأ حديثه أو شعره بالصلاة على النبي ﷺ ، وهي ظاهرة لا تحتاج في تحليلها إلى كثير من التأمل وانعام النظر ، خاصة إذا عرفنا أن الصلاة على النبي تقرن دائماً بصفة مميزة .

ويمكننا أن نصل إلى النتيجة نفسها عندما نتصدى لدراسة الآداب الشعبية في البلاد العربية والاسلامية الأخرى ، كما نصل إليها من دراسة السيرة النبوية في الأجناس الفنية المختلفة ، ومن ذلك في الحضارة السمعية مثلاً ، ما نجده في أقدم المدائح النبوية ، حيث يقول الأعشى :

نبي يرى مالا ترون وذكره أغار لعمرى في البلاد وانجدا
له صدقات ماتغبً ونائلٌ وليس عطاء اليوم ما بئغهُ غدا
متى ما تنأجى عند باب ابن هاشم تراجي وتلقى من فواضله ندى

ومهما يكن من أمر صدق الأعشى في مدح الرسول ﷺ ، إلا أنه حرص على تأكيد الخصائص العربية الاسلامية في الشخصية المثلى ، وكذلك الحال في قصيدة (بانث سعاد) التي قالها كعب ابن زهير في مدح الرسول ﷺ ، والتي منها :

إن الرسول لنور يستضاء به
وصارم من سيوف الله مسلول
في عصابة من قريش قال قائلهم
بيطن مكة لما أسلموا زلوا
زَلُوا فزال انكاس ولا كشف
عند اللقاء ولا ميل معازيل
شم العرانيين ابطل لبوسهم
من نسج داود في الهيجا سراويل
لا يفرحون اذا نالت رماحهم
قوما وليسوا مجزيماً إذا نيلوا
يمشون مشي الجمال الرُفْر يعصمهم
ضرب إذا عزد السؤد التناويل
لا يقع الطعن الا في نحورهم
وما لهم عن حياض الموت تهليل

□□ كانت السيرة النبوية ، وما زالت ، مصدر الهام للأعمال الأدبية والفنية على توالي العصور ، ولقد تمثلت في سيرتها الطويلة جميع الفنون الأدبية ، من قصة إلى قصيدة ، إلى مسرحية ، كما افادت من وسائل الاتصال في الحضارات الاعلامية المختلفة ، منذ الحضارة السمعية ، ومروراً بحضارتي : التدوين والطباعة . وحتى حضارة الاذاعة المسموعة والمرئية . وفي هذه الدراسة ننظر في الاعمال التي تناولت السيرة النبوية في هذه الحضارات الاعلامية وفي الفنون الأدبية المختلفة ، في محاولة لاستقراء خصائص الشخصية الاسلامية كما تمثلها الوجدان الاسلامي ، وعبر عنها شعراً ونثراً ، في الأدب الفصيح ، وفي الأدب الشعبي على السواء . □□

والنقل الحضاري بين الأجيال

وإذا كانت الشخصية المشتركة هي بوجه عام : السمات النفسية والاجتماعية والحضارية لامة ما ، وتتسم بثبات نسبي ، ويمكن عن طريقها التمييز بين هذه الامة وغيرها من الأمم ،^(١) فإن دراسة الأعمال الأدبية التي تناولت السيرة النبوية ، تطلعنا على عدد من خصائص الشخصية الاسلامية المثل ، وهي تؤكد التكامل الانساني في صاحب السيرة ﷺ ، ومن ذلك ما جاء في كتاب الشفاء للقاضي عياض في مقدمة كلامه في اوصاف محمد ابن عبد الله ﷺ : أن خصال الجمال والكمال في البشر نوعان : ضروري دنوي اقتضته الجبلة ، وضرورة الحياة الدنيا ، ومكتسب ديني ، وهو ما يحمد فاعله ، ويقرب إلى الله تعالى زلفى ، ثم هي على فئتين أيضاً ، منها ما يتخلص لأحد الوصفين ، وما يتمازج ويتداخل . فاما الضروري المحض ، فما ليس للعرض فيه اختيار ، ولا اكتساب ، مثل ما كان في جبلته من كمال خلقه وجمال صورته ، وقوة عقله ، وصحة فهمه ، وفصاحة لسانه ، وكرم أرضه ، ويلحق به ما تدعوه ضرورة حياته إليه من غذائه ونومه وملبسه ومسكنه ومنكحه وماله وجاهه .

واما المكتسبة الاخرية . فسائر الاخلاق العلية والفضائل الشرعية من الدين ، والعلم ، والحلم ، والرحمة ، وحسن المعاشرة .. وهي التي جماعها حسن الخلق . ومن ذلك بين أن القاضي عياضاً قد قسم الأوصاف التي تحل بها النبي عليه الصلاة والسلام قسمين :

أحدهما - ما كان بالفطرة الانسانية وهي كمال الفطرة ، ويلحق بها اوصافه الجسمية ، صلى الله تعالى عليه وسلم . وثانيهما - ما اكتسبه بمقتضى التعاليم الشرعية وذكر منها التواضع والحلم ، والصبر والشكر ، وحسن المعاملة ، وبشكل عام ما يتعلق بحسن الاخلاق الذي هو جماع الفضائل الإنسانية . ويذكر أن من هذه الصفات المكتسبة بحكم الشرع الشريف والوحي إليه مما تلقى فيه الفطرة المستقيمة مع الوحي ، فالجود والتواضع والصبر والفصاحة ، والثاني ، وحسن التأتي للامور ، والرفق في القول والعمل ، ولين الجانب من غير ضعف ، والقول الحق من غير عنف ، كل هذه الصفات كانت في محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانت فيه بفطرته المستقيمة ، وبتهيئة الله تعالى له قبل الرسالة ، اعداداً لهذا المنصب الخطير ، وهو رسالة الله تعالى الى خلقه .^(٢)

وإننا لتركز في هذه الدراسة ، على ما كان فيه بمقتضى الطبع الانساني السامي الذي فطره الله تعالى عليه وما كان من صفات تتعلق بالمعاملات ، والعلاقات الانسانية والمودة والرحمة والرفق ، والفصاحة ، وغيرها مما كانت مهينة للرسالة وتحمل الأعباء^(٣) . في محاولة لتصور الشخصية الاسلامية المثل ، ووصف السمات النفسية والاجتماعية والحضارية للامة الاسلامية ، كما صورتها السيرة في عصورها المختلفة ، والتي يمكن عن طريقها التمييز بين هذه الامة وغيرها من الأمم .

الشخصية الاسلامية في السيرة النبوية :

وما تقدم يتضح أن السيرة النبوية تمثل القاسم المشترك الأعظم بالنسبة للشخصية الاسلامية رغم وجود فروق بين شعب اسلامي وآخر ، ذلك أن السيرة النبوية تمثل قيما حضارية مشتركة ، لها تأثيرها على السلوك الاجتماعي للشعوب الاسلامية المختلفة ، يتضح في الاهتمام بالدنيا الى جانب الاهتمام بالدين ، وتحقيق التعادلية بين سعادة الروح وسعادة الجسد ، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر ، وهو سلوك تعادلي ، أفاد من الحديث الشريف توجيهه إلى الاتحاد ، فـ « المسلم للمسلم كالبنين يشد بعضه بعضاً » وفي السيرة النبوية دعوة للعرب وللناس جميعاً إلى ترك الانفرادية والانعزالية ، وأن يصبح العمل الموحد في سبيل الغاية المشتركة اساساً مستفاداً من السيرة النبوية في كل العصور ، فالناس جميعاً عباد الله ، وكلهم مشتركون في هذه الصفة « متساوون فيها ، ليس لأحدهم فضل ولا تقديم الا بمقدار ما في قلبه من الاخلاص وفي سعيه من عمل مثمر يعود على البشر بالخير والسعادة »^(٤) .

وإلى جانب ما تحققه السيرة النبوية من وظائف في تطهير النفوس وتهذيبها ، وما قامت به من تحرير للمجتمع العربي من الشوائب والمفاسد المتمثلة في تقاليدهم وعاداتهم ، وفي قيمهم ونظرتهم للحياة ، والصلوات المختلفة بين الناس ، وطرق العيش وتحصيل الكسب ، كذلك تحرير معتقداتهم وإرسائها على قواعد ثابتة مكيبة ، الى جانب هذا نجد الاسلام قد وضع الاسس للتاريخ المجيد للامة الاسلامية ، وما تتمتع به من مقومات بمفهومها الذي نعرفه الآن ، متمثلاً في اللغة والتاريخ والحضارة . كذلك كان الاسلام سبباً فيما نحيا فيه الآن من سعي نحو تأكيد دور الامة الاسلامية فقد دعا العرب المتباعدين المتنافرين إلى تكوين امة مترابطة متجانسة موحدة الاهداف والأمال :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١١٠) ، ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (آل عمران : ١٠٤) ، ﴿ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (البقرة : ١٤٣)

فهذه الآيات واضحة الدلالة على أن الاسلام صاغ هذه الامة العربية صياغة جديدة ورفع مكانتها بين الأمم وشرفها بهذه الرسالة السامية ، وأعطاهم من تراث العلم والمعرفة ما تستطيع أن تقف به بين الأمم مفاخرة معتزة . وهذب الاسلام الامة العربية بتوحيد قبائلها وفض منازعاتها ، وتوحيد جهادها ورسم اهدافها لخير المسلمين وخير البشرية^(٥) .

من جيل إلى آخر ، ونغيد في دراسة هذا الارتباط من الصياغات الموجودة في « نظرية التعلم LEARNING THEORY » ، غير أن هناك جوانب قصور في الاعتماد على نظرية التعلم وحدها ، من أهمها أن هناك وفق ما نعلمه عن عمليات تأثير الثقافات بعضها ببعض وانتشارها حداً يتعلق بمضمون الثقافة التي يمكن أن تنتقل عبر عمليات التعلم المباشر . ومن ناحية أخرى يؤثر التساؤل حول ، ما إذا كانت عملية التعلم بمفردها يمكن أن تفسر انتقال الثقافة ، ولماذا يصعب فهم السبب الذي يجعل الثقافة تتغير دون أن تستعير شيئاً من الثقافات الأخرى ؟ والمشكلة أن عمليات التعلم لا تستطيع أن تفسر الطابع التكاملي للذهن الانساني ، وذلك إذا ما وضعنا في الاعتبار العلاقات الانفعالية للفرد مع بيئته . وهناك عامل آخر يحدث فعله وهو عامل تستطيع عيادة التحليل النفسي أن تلقي عليه مزيداً من الضوء . فبالإضافة إلى عمليات التعلم المباشر ، فإن الفرد بين سلسلة بالغة التعقيد من الأنساق التكاملية التي ليست نتيجة للتعلم المباشر^(١) .

ومن أجل ذلك كله تلجأ إلى جانب نظرية التعلم في التفسير الاعلامي للسيرة النبوية إلى نظرية أخرى ، ونعني بها « نظرية الاتصال COMMUNICATION THEORY » ، والتي تذهب إلى أن عملية الاتصال لا يمكن أن تتحقق وأن تحدث في حد ذاتها ، ولكنها تحدث كافتراض أساسي للعملية الاجتماعية ، وفي ذلك تعد العملية الاجتماعية افتراضاً أساسياً للاتصال^(٢) . ولقد حاول موريس جانوفيتز - MORRIS JANOWITZ وهو من كبار العلماء المهتمين بدراسة الاتصال - أن يحدد في مقاله عن The Study of Mommunication أهم وظائف الاتصال الجماهيري فذكر ثلاث وظائف أساسية هي : نقل تراث المجتمع من جيل لآخر وجمع المعلومات التي تساعد على مراقبة البيئة والإشراف عليها ، ثم المساعدة على ترابط مختلف أجزاء المجتمع في وجه التغييرات الهائلة التي تطرأ على تلك البيئة . وقد تبدو هذه (الوظائف) غريبة بعض الشيء ، أو على الأقل غير مألوفة للكثيرين ممن يتصورون أن لوسائل الاتصال الجماهيري وظائف وأهدافاً أخرى غير هذه ، مثل الدعاية السياسية والترويج للمذاهب والايديولوجيات والأفكار المتعلقة بنظام الحكم القائم ، أو حتى الترويج لأنواع معينة من النشاط الاقتصادي عن طريق الاعلان ، وذلك فضلاً عن توفير بعض مواد التسلية والترفيه المفيدة ، وربما كانت هذه الوظائف الثلاث التي ذكرها جانوفيتز في نظره « الوظائف النهائية ، أو الوظائف العليا » التي ينبغي لوسائل الاتصال الجماهيري أن تعمل على تحقيقها في آخر الأمر ، إلا أن اختلاف وجهات النظر وتعدد حول هذا الموضوع خليق بأن يكشف لنا عن مدى أهمية الاتصال الجماهيري في حياة

وتثير هذه القضية أمام عالم النفس الاجتماعي مشكلة على جانب كبير من الأهمية والخصوصية معاً ، هي كيف يتم نقل عناصر الإطار الحضاري من شخص إلى آخر ؟ من الآباء إلى الأبناء مثلاً خلال عملية التنشئة الاجتماعية أو ما يعرف اصطلاحاً بالتطبيع SOCIALIZATION ؟ ذلك أن الإطار الحضاري لا يجوز تصوره على أنه يحيط بنا فحسب ، بل الواقع أن جزءاً كبيراً منه لا يمكن أن يقوم إلا من خلالنا . ومن ذلك مثلاً نظام القيم والرموز وأشكال السلوك المقبولة أو المنشودة ، هذه كلها جوانب من الحضارة لا يمكن أن تقوم إلا بواسطة أبناء المجتمع ولا يمكن أن تستمر عبر الأجيال إلا بأن ينقلها أبناء الجيل إلى أبناء الجيل التالي فكيف يتم هذا النقل^(٣) ؟ وبالقيااس إلى السيرة النبوية وسمات الشخصية الإسلامية ، نطرح السؤال نفسه ، كما نتساءل : هل تنقل جميع السمات أم بعضها ؟ وإذا كان بعضها فقط فما هي القوانين المنظمة لانتخابه ؟ مشكلات على جانب كبير من الأهمية ، ولا سيما حينما نتصدى لدراسة السمات التي تمثلها الشخصية الإسلامية من السيرة النبوية . وعندما ننظر إليها على مستوى التفاعل بين الأفراد من خلال عملية التطبيع أو من خلال عملية التحضير ACCLTURATION للكشف عن القوانين العامة التي تنظمها ، لا تصبح موضوعاً من الموضوعات التي يختص علم النفس الاجتماعي بمعالجتها فحسب ، وإنما من شأنها كذلك أن تزيد بصيرة التفسير الاعلامي للسيرة النبوية بجوانب أرحب وأعمق .

وهذه القضية ترتبط بمفهوم البناء الأساسي للشخصية ، والذي يذهب إلى أن الناس في « ثقافة » معينة يميلون إلى أن يتشابهوا في شخصياتهم . وقد ثارت مشكلة تتعلق بتحديد العلاقة بين النظم الاجتماعية داخل الثقافة نفسها ، وأن كانت الميزة التي لا تنكر لمصطلح « الأنموذج الثقافي » هي أنه اعتراف بالحقيقة التي مؤداها أن ثمة علاقة وطيدة بين الشخصية والنظم الاجتماعية ، وأن هذه العلاقة تتسم بالديموم^(٤) . ومن هنا يتضح الارتباط بين السيرة النبوية والنقل الحضاري بين الأجيال ، تأسيساً على أن الثقافات تنتقل داخل أي مجتمع ،

السيرة النبوية . . والنقل الحضاري بين الأجيال



الفرد والمجتمع ، وتنوع بل وتغاير وتباين المجالات التي يمكن أن يفيد فيها ، وهذا كله يعني في آخر الأمر أن أية محاولة لدراسة الاتصال الجماهيري يجب أن تعطي كثيراً من الاهتمام لدراسة وفهم النظم التي تصوغ عمليات الاتصال ، والسياسات التي تهدف إليها ، والآثار المترتبة عليها ، ومدى اقتناع الجماهير بما يقدم لهم من مواد ومعلومات .^(١١)

التفسير الاعلامي يواجه صعوبات

على أن التفسير الاعلامي للسيرة العطرة ، يواجه صعوبات خاصة . ترجع إلى أن المواقف التاريخية تكون على النقيض من المواقف التي لا يمكن التحكم فيها بصورة صناعية كما يحدث في إحدى العمليات أو أحد المختبرات الكيميائية — ذلك أن المواقف التاريخية ، لا تكرر نفسها بالضبط تماماً بحيث تسمح بصياغة قوانين وصفية دقيقة يمكن بدالاتها تفسير أثرها ، والتكهن به في ثقة تامة . فمن المحال علينا أن نعاين الأحداث التاريخية الماضية معاينة مباشرة ، ذلك أن ما قد حدث وما أدى إلى حدوث تلك الأحداث لا يد من استنتاجه من اشتات أدلة وشواهد جزئية لا يمكن الاعتماد عليها في كثير من الاحوال ، ومن المحال اجراء التجارب على السلوك البشري الشامل على أي نطاق واسع . أجل إن التجارب توضع موضع الاختبار كما يحدث في نظام جديد للحكم أو أسلوب جديد من الفن ، ولكن ذلك لا يكاد يتم بأية حال تحت ظروف مقننة ، تسمح بالتحليل الموضوعي للأسباب والنتائج بالمقارنة مع مجموعة ضابطة ، وأن ما تنسم به الأحداث الثقافية من تنوع هائل وتعقد جسيم يجعل من العسير تمييز ما فيها من تكرارات دقيقة . وتبدو الظواهر الثقافية كأنما هي تغير سلوكها على الدوام ، ثم ان تغيرات مجهولة لا يمكن التنبؤ بها لا تفتأ على الدوام تقلب توقعاتنا رأساً على عقب .

ونظراً لقلّة ما لدينا من القوائيم المفسرة الكافية ذهب بعض اصحاب النظريات من العلماء إلى أن التفسير الكامل الوحيد لحادثة معينة هو الوصف الكامل لجميع الأحداث السابقة ، وهو أمر محال بطبيعة الحال ، وكثيراً ما حذرنا الفلاسفة من أن الحادثة أو الحالة لا يتم تفسيرها تماماً بمحض تعقب تكوينها ، وخاضعة عن طريق تتبع سلسلة مساعدة من الأحداث المؤدية إلى الحادثة أو الحالة الراهنة .^(١٢)

وإذا كان من المتفق عليه أن ، التفسيرات الكاملة والمؤكدة والنهائية ، مستحيلة في التاريخ كما هي مستحيلة في العلم والفلسفة ، فإن التفسيرات ، الجزئية والمؤقتة والاختيارية ، ليست بمستحيلة وهي أشق في نظريات التاريخ منها في العلوم

الدقيقة ، ومن ثم يجب أن تكون متواضعة فيما تدعيه من دعاوى . ومع هذا القدر من التحذير تصبح الفروض التفسيرية ممكنة فيما يتعلق بالتاريخ الثقافي بما في ذلك تاريخ الفنون ، قدر ما هي ممكنة في المواطن الأخرى من العلوم الاختبارية ، حيث يمكن اختبارها شيئاً فشيئاً على ضوء المعطيات الاختبارية ثم تدعيمها أو اضعافها أو تصحيحها . ذلك أن تفسيراً صادقاً — وأن يكن جزئياً — على حد تعبير توماس مونرو^(١٣) — يعتبر خيراً من لا شيء ، إذا لم تعده خطأ أنه كل التفسير وأنه التفسير الضروري والوافي ، وإذا هو لم يعطنا صورة كاذبة ومشوهة لتتابع الأحداث الكاملة . ترى ما هو التفسير ؟ وإلى أي حد يحتاج إلى ابضاح العلاقة العلية ؟

والاسلام في تجدهه وتجديده وانطلاقه وامتداده ليس الا تفسيراً حقيقياً للطبيعة المتجددة والطبيعة الممتدة في الحياة ، فانه جل شأنه قد مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكناً ، كما قال في محكم آياته . والله لم يجعل الليل سرمداً ، ولم يجعل النهار سرمداً ، ولكن جعلهما موصولين امتداداً وانطلاقاً إلى ابد الأبدين ، ولو وقف الكون عند نهار دائم وحسب ، أو ليل دائم وحسب ، لكان ذلك جموداً لا تصح به الحياة ، ولا يصح عليه الاحياء^(١٤)

دعوة الإسلام إلى العلم

والاسلام من طبيعته التجديد . وليس من طبيعته الجمود . وأية ذلك دعوته الدائمة إلى العلم رحته عليه وقد أعلی الاسلام من شأن العلم . ولم يساوبين عالم وغير عالم ، لأنه يريد للناس والاتسانية ان يتجددوا مع الحياة ، ولا يقفوا بها عند حد معين^(١٥) .

ولعل ايراد بعض آيات من مادة (العلم) في القرآن ليسانده هذه القضية فالقرآن يقول : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (المجادلة : ١١) ويقول : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ (المنكيات : ٤٩) ويقول : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ (آل عمران : ١٨) ويقول : ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَ فِي الْعِلْمِ ﴾ (البقرة : ٢٤٧) ويقول : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر : ٩) فالعلم متغير ، متجدد ، قابل للتطور والارتقاء . وليس كذلك العبادات . ومن هنا كانت دعوة الاسلام إلى العلم ، لأنها دعوة إلى التجديد في الحياة .



وليس المقصود بالعلم هنا هو علم الدين فقط كما فهمه بعض المسلمين ، وجاراهم فيه خبثاء المستشرقين والباحثين في الاسلام ، من امثال (سيكار) الفرنسي الذي ملا مجلة (مراكس الكاثوليكية) في الثلاثينيات من هذا القرن بادعاءات وطعون في الاسلام ، زعم فيها ان الاسلام لم يدع إلى العلم بمفهومه العام ، ولكنه دعا إلى الدين ، وذلك ليجرد الاسلام من فضيلة الدعوة إلى العلم مطلقاً والحث عليه .. ونسي المسكين الحديث النبوي : (اطلبوا العلم ولو في الصين) فلو كان العلم هنا دينياً ما دعا النبي إلى طلبه في الصين ، لان اهله من عباد الازنان .. وهذا الحديث مما رواه العقيلي ، وابن عدي ، والبيهقي وابن عبد البر عن انس^(١١) .

والاسلام — في دعوته إلى التجديد والانطلاق في آفاق الكون ، والنظر في ملكوت السموات والارض ، وعدم الجمود عند حد معين — لم يجر على سنن غريب عليه ، وليس منه .. فهو في ذاته مجدد مصلح منذ ان دعا النبي ﷺ إلى سبيل ربه .. وهو أبو التجديد ورائده .. خاصة في شؤون التشريع ، فقد أتى على نظم الجاهلية وأدخل عليها من التجديد والاصلاح ما جعله حرياً بأن يوصف بالتجديد لا بالجمود^(١٢) .

وإذا كان علماء الاعلام يذهبون — ونحن معهم — إلى أن الانسان كان يعيش خبرته الكلية المتكاملة الشاملة قبل ظهور اللغة الحديثة بحرفها الصوتية وبعد ظهورها فتجزرت الانطباعات الكلية والمدركات للأشياء إلى أجزاء مجردة ، فإن السيرة النبوية في نشأتها قد ارتبطت بالحضارة السمعية واتحدت مظهر الرواية والتلقين ، وكان الخليفة الاموي عبد الملك ابن مروان ، والوليد بن عبد الملك يوجهان أسئلة تاريخية إلى الراوية المؤرخ « عروة بن الزبير » الذي كان يجيب عنها وخاصة ما يتصل بالسيرة النبوية من احاديث جمعها . وبلغ من اهتمام الخليفة الاموي العادل عمر بن عبد العزيز بالسيرة أنه أمر الراوية : عاصم بن عمر بن ققادة وهو أنصاري من المدينة — ان يجلس في مسجد دمشق ليحدث الناس بالمغازي والسيرة النبوية ومناقب الصحابة ، وقد توفى هذا الراوية في سنة ١٢٠ هـ . أو ١٢٩ هـ . وتتسم الحضارة السمعية « بالتركاز » و « الاعادة » .

الشعر كوسيلة إعلامية

وكانت القصيدة أول ما عرفه العرب وغير العرب من وسائل الاعلام ، وكانت الاداة الوحيدة للتعبير عن رأي القبيلة في العصر الجاهلي ، فلما جاء الإسلام أدت قصائد الشاعر الاسلامي (حسان بن ثابت) دورها في مناصرة صاحب الدعوة ، ثم في عصر بني أمية وجد ما يسمى بالشعر السياسي ،

السيرة النبوية . . والنقل الحضاري بين الأجيال

وعلى الشعراء السياسيين من امثال جرير والفرزدق والخطيب والراعي وذوي الرمة اعتمد خلفاء بني أمية في كثير من قضاياهم السياسية . ثم في العصر العباسي ظهرت عصبية من نوع آخر . اسمها « الشعوبية » ، وحلت محل العصبية القبلية . كما ظهرت في العصر العباسي عصبية من نوع ثالث هي العصبية المذهبية^(١٣) .

ثم في عهود الخلافة الفاطمية والسلطنة الأيوبية وعهد المماليك — وهي العهود التي شهدت الحروب الصليبية كان للشعر المكان الأول في ميادين الاعلام والدعاية . وبالشعر كما بالسيف — كوسائل مادية — نجح الفاطميون في مصر . وبالشعر كما بالسيف وفي التغلب عليهم وطردهم من البلاد الاسلامية . وبقيت للقصيدة الشعرية مكانتها ووظيفتها السياسية والاجتماعية والاعلامية والدعائية إلى يومنا هذا ، ففي كل حادث هام أو موقف من المواقف السياسية أو الاجتماعية الخطيرة نسمع صوت الشاعر إلى جانب صوت الصحفي^(١٤) .

ولقد كان لقصيدة حسان بن ثابت أثرها في اعتراف « تميم » بأن محمداً عليه الصلاة والسلام موحى إليه ، بهذا الدين الذي يدعو إليه .

والحق أن حسان كان آية من الآيات أيد الله بها رسوله ﷺ فقد كان المشركون أهل لسن وفخر وهجاء ، وقد حاربوا الرسول بهذا السلاح . فكان لا بد له ان يعد لهم شاعراً سليط اللسان قوي البيان سريع العارضة ، وقد كان لمعسكر المسلمين شعراؤه ولا بد ان يكون الكثير منهم قد تتلع لهذا الشرف السامي . ولكن الرسول — عليه الصلاة والسلام — بتأق نظره ، ندب حسان لهذا الشرف من ثغور الدعوة ، فحسان أنصاري ، والانصار قد نصرنا رسول الله بسيفهم ، فهم أجدر ان ينصروه بألسنتهم ، وهو من بني النجار — ذؤابة الخزرج — وهو شاعر ناضج معروف المكانة ، وقد كمل رسول الله ﷺ ناحية النقص في عدته الهجائية ، فعهد إلى أبي بكر رضي الله عنه ان يحدثه حديث القوم وأيامهم وأحسابهم وقد ظهر اثر ذلك كله في شعر حسان ظهوراً لم يخف على قطانة قريش ، فقالت بعد سماع شعر حسان : « هذا الشتم ما غاب عنه ابن أبي قحافة » .

وقد سر النبي ﷺ لهذا التوفيق الذي أصاب شاعره ، فكان يستنشده ويطلب الاستماع إليه ثم يقول : « لهذا اشد عليهم من وقع الغبل » وروي أنه قال : « أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان ابن ثابت فشفي وأشفى »^(١٥) .

وواضح من المواقف التي وقفها حسان وامثاله ، انه كما كان للدعوة شعراؤها المؤمنون بها المنافحون عنها ، فلقد كان كذلك لها اعداؤها ممن أخذو يكيدون لها شعراً مثل أمية بن أبي



على أن التفسير الاعلامي للادب بوجه عام ، وللسيرة النبوية بوجه خاص ، ينظر إلى الأدب الشعبي ، في الحضارة السمعية - نظراً خاصة ، ذلك أن الأدب الشعبي ليس بالضرورة أدب لهجات دارجة ، وأن النسبة إلى الشعب هو الفاصل في التفريق بين ما هوشعبي وما هو غير شعبي . فإن في الآثار الفصيحة ما يمكن أن يكون شعبياً ، وفي الآثار التي تتوصل باللهجات الدارجة ما لا يستطيع باحث أن يضعه في دائرة الأدب الشعبي .

ذلك أن الأدب الشعبي في الحضارة السمعية يرتبط بفن « المحدث » المحترف فإذا كان الأدب المسرحي يقوم على التمثيل ويستمد حياته من حرفة المسرح ، والنظارة ، فإن القصص الشعبي يعتمد على الشاعر أو المحدث وجمهور المستمعين إليه ، ولعل أثر هؤلاء المستمعين في القصص الشعبي أعظم من أثر النظارة في الأدب المسرحي . فالفاعل بين القصاص ، شاعراً أو محدثاً ، وبين جمهوره بالغ القوة . فهم يستطيعون حمله على الاطناب أو الإيجاز أو حتى على الحذف والتعديل في نص القصة ، يساعدهم على ذلك ، أن التقاليد ليست نصاً مكتوباً ذاتاً كبقية النصوص الأدبية ، وإنما هي بطبيعتها شفوية يتلقاها القصاص عن شيخه وهكذا . وهذا التسلسل الشفوي من رواية إلى آخر ، يجعل القصص عرضة من هذه الناحية إلى الحذف والتغيير^(١٧) . وتفسير ذلك اعلامياً أن فن المحدث المحترف ينتظمه الاتصال الجمعي ، الذي يقوم على أساس من التفاعل المتبادل بين المرسل والمستقبل ، ومعنى ذلك أن فن المحدث المحترف نمط اتصالى مزدوج الاتجاه ، فيه أخذ ورد ، وإرسال واستقبال . وقد ظهر المحدث المحترف ، في الاحتفال بذكري المولد النبوي . وإن كنا لا نعرف أول من ألف في المولد ، إلا أن من أقدم ما عرفنا من هذا النوع كتاب « العروس » وهو مولد ألفه ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ ورسالة ابن جابر الأندلسي المتوفى سنة ٧٨٠ ، ورسالة الرعييني الغرناطي المتوفى سنة ٧٧٩^(١٨) .

وفي دار الكتب المصرية نحو أربعين مولداً ألفت في عصور مختلفة ، ولو استقصينا لعرفنا أن هذا النوع من التأليف كثر جداً : فلكل طريقة مولد ، بل لكل شيخ مولد ، وهي جميعاً تتشابه في الغرض والأسلوب . على أن أكثر المولدات نظم في نثره نظماً غنائياً ليصلح للترتيل والتغني والانشاد ، ولم يرج بين الجمهور إلا المولد التي روعي فيها نظام الفواصل المسجوعة التي تجري مجرى القصيدة ، في التزام القافية^(١٩) . وهذا من آثار الحضارة السمعية ، التي أضافت إلى هذه المنظومات النثرية منظومات شعرية ينشدونها المنشدون بعد كل

الصلوات ، وكعب بن الأشرف وعبد الله بن الزبيرى والحارث ابن هشام ، وغيرهم . وإذا كان لهؤلاء ، وأولئك مواقفهم الشعرية بعد فتح مكة ، فقد كان لهم كذلك مواقفهم قبل الفتح . ففي وقعة بدر الكبرى - مثلاً - حيث كان نصر المسلمين رائعاً مؤزرًا يقول حسان بن ثابت :

سرونا ، وساروا إلى بدر لحينهم لو يعلمون بعين العلم ما ساروا^(٢٠)
دلاهم بغيرور ثم اسلبهم ان الخبيث لمن والاه غرار^(٢١)
وقل : اني لكم جار هاوردهم شر الموارد فيه الخزي والمعار
ويمضي شعر المسلمين يسجل على قريش بغيبها ويطرها الذي
سجله القرآن من قبل ، فقال كعب بن مالك :

عجبت لامر الله والله قاهر على ما اراد ، ليس لله قاهر
قضى يوم بدر ان نلاقى معشرا بنوا ، وسبيل ، البيه بالنفس جائر
وقد حشدوا واستنغروا من يليهم من الناس ، حتى جمعهم متكائر
وينهض شاعر يهودي قد ملأ قلبه غيظاً وحقدًا على محمد ﷺ
ودعوته ، وقد رأى في موقعة بدر نذير سوء عليه وعلى قومه
وعلى دياره في يثرب وما حولها فيذهب إلى مكة مستنهضاً
قريشاً مستثيراً رجالها لياخذوا بثارات قتلاهم في بدر فيقول :
طحنت رحي بدر لمصرع اهله ولخلل بدر نستهل وندمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم لا تبعدوا إن الملوك تصرع
نبئت ان الحارث بن هشامهم في الناس بيني الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنما يحيى على الحساب الكريم الأروع
ومهما كان القول من جانب شعراء المشركين فقد كان لواء
الشعر معقوداً على حسان ، حيث كان يضرب بشعره في مقاتل
قريش ، ويحشد كل امكانياته البيانية في اطار ايمانه المنيع
العريق وجبه للرسول ﷺ .

ويبدو أن حسان قد غطى كل أحداث عصر الرسول ﷺ بشعره بجانب ما نظم من مناقضات يرد بها على شعراء المشركين ، كما فعل في رده على ابن الزبيرى أو الأعشى بن زرارة التيمي حليف بني نوفل بن عبد مناف ، فقد كان كلاهما يبكي على بدر ، ويتحسر على مقتل كبار رجال قريش^(٢٢) .

ويمكن القول : إن الشعر على السنة الشعراء المناهجين عن العقيدة ، كحسان وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك ، كان مكسواً ثوب الايمان ، ملتزماً المعاني الاسلامية ، طالما كان في التزامها مزيد من القوة للدفاع عن الدعوة ، جانحاً عنها إلى أسلوب الشعر جاهلي متى كان في ذلك فائدة للدعوة أيضاً^(٢٣) ، وبعبارة أخرى ، كان الشعر يلتزم المعاني التي تؤذي نفوس قريش بالحديث عن الانساب والوقائع والأيام والمآثر ، وهو السلاح الذي ينفع مع قريش ، ذلك أنها لم تكن تحفل بوصفها بالشرك والكفر وعبادة الاوثان ، لأن ذلك كان مصدراً لفخرهم والاعتزاز بدين آبائهم فكان طبيعياً أن يهجوم حسان وكعب بما يؤذي نفوسهم^(٢٤) .



وصلة ، والوصلة تختتم بدعاء مكرر ، كأن يقول المنادي :

اللهم عطر قبره بالتعظيم والتحية .
واغفر لنا ذنوبنا والآثام

وتلك المنظومات الشعرية — كما يقول الدكتور زكي مبارك — « ساذجة في الفاظها ومعانيها فهي ليست من الأدب الفحل ، ولكن قيمتها ترجع إلى عمق أثرها في البيئات الشعبية »^(١١) .
ولهذه المنظومات آداب وتقاليد رسمتها الحضارة السمعية ، فالحدث يجلس على منصة عالية تجعله يشرف على مستمعيه ، ويجعل هؤلاء المستمعين يستطيعون رؤيته من غير عائق .. ويسترسل في حديثه وهو جالس — فإذا أراد إنشاد الشعر ، وقف واستعان عليه بالربابة ، وهي الآلة المعروفة « واحدة الوتر »^(١٢) .

ويصطنع الحدث شيئاً من التمثيل في بعض الأحيان ، فيحاكي مختلف اللهجات وبهذا تباين السيرة الخطابية ، وتقرب من التمثيل في الشكل والموضوع ، بيد أن التمثيل يعتمد على العين والأذن معاً ، والسيرة جل اعتمادها على الأذن^(١٣) . كنتيجة لارتباطها بالحضارة السمعية وفي تقديرنا أن السيرة النبوية في الحضارة السمعية ، شأنها في سائر الحضارات الأخرى ، ترتبط بتصوير الشعب العربي الإسلامي ، لوجدانه وتعبيره عن ذاتية العامة .

وظهور الشاعر الشعبي ، وازدهار صناعته في مجتمع من المجتمعات ، يعني أن الحضارة السمعية لم تنته باقبال الحضارة التدوينية ، ذلك أن التدوين بطبيعته له جمهور محدود ، هو الذي يعرف القراءة والكتابة ، ومن هنا يجيء ظهور الشاعر الشعبي احتجاجاً على قصور حضارة التدوين ، وتقصيرها في الاتصال بالجمهير ، ونحن نعلم مما سطرته كتب التاريخ والأدب والتراجم ، ومما ذكره الجوابون (الرحالة) من شريين وغربيين ومما سجله المستشرقون من صدور الحفاظ وأهل هذه الحرقة ، أن الشاعر الشعبي كان عالي الصوت في المجتمع المصري في تلك القرون السالفة ، وأنه ظل يوجب المدن والقرى في الأعياد والمواسم والاحتفالات العامة بعد الاحتلال الإنجليزي الذي رآه الوجدان الشعبي المصري امتداداً لحكم غير المصريين ، أو بعبارة أخرى كانت مالوفة في القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، لحكم غير « أولاد العرب »^(١٤) !

ولقد التمس الشعب المصري — مثلاً — عصر البطولة في سير فرسان العرب ، ولكنه وجد ذاته في السيرة النبوية العطرة ، التي نقلت إلى الجماهير شيئاً من أخبار الغزوات ، وحدثتهم عن أشياء كثيرة من شمائل الرسول عليه الصلاة والسلام .

الحواشي

- ١ - د . عبد الحميد يونس : مجتمعنا ، القاهرة ، دار المعارف ، ص ٢٧ .
٢ - د . محمد زغلول سلام : القومية العربية في الأدب الحديث

السيرة النبوية . . والنقل الحضاري بين الأجيال

(القاهرة ، دار المعارف — ١٩٥٩) ص ٣٣ .

٣ - المرجع نفسه ، ص ٣٢

٤ - Torhune, K. From : National Character to National Behavior, A. Reformulation, the Journal of Conflict Resolution, Vol. XIV, No. 2, June, 1970, 203—253

٥ - الإمام محمد أبو زهره . خاتم النبيين ﷺ ، (القاهرة دار الفكر العربي) ص ١٨٢

٦ - المرجع نفسه ، ص ١٨٢ .

٧ - د . مصطفى سويف . مقدمة لعلم النفس الاجتماعي ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية . ١٩٧٥) . ص ٦٠

٨ - السيد يسن . الشخصية العربية بين المفهوم الإسرائيلي والمفهوم العربي ، القاهرة . مطابع الأهرام التجارية ١٩٧٤) ص ٥٠

٩ - المرجع نفسه ، ص ٥١ .

١٠ - G. H. Mead, Self and Society, university of Chicago Press, 1945, pp. 290

١١ - د . أحمد أبو زيد : الاتصال في عالم الفكر — الكويت ١٩٨٠ ، ص ٨

١٢ - عن المقالات النقدية التي تبحث في المنهج . في تحليل الأشياء في صورة تاريخية . بقلم سدني هوك وغيره . انظر ما كتبه . جـ . وأنذال (الطبيعة والبشرية والتاريخية)

Nature and History Theories of History

(كولومبيا ، نيويورك ، ١٩٥٨) ص ٦٤ . جـ . وانظر كتاب نظريات التاريخ لباتريك جاردرن — في توماس مونرو : ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد وآخرين ، التطور في الفنون جـ ٣ ، ص ١٨٨ ، ومابعدهما .

١٣ - توماس مونرو : المرجع السابق ، ص ١٩٠ .

١٤ - د . محمد عبد المنعم خلفي : الإسلام والتجديد . الهلال عدد يناير ١٩٨٠ ص ٤١

١٥ - المرجع نفسه ، ص ٤٢

١٦ - المرجع نفسه ، ص ٤٣

١٧ - المرجع نفسه ، ص ٤٣

١٨ - د . عبد اللطيف حمزة : الاعلام والدعاية . (بغداد : مطبعة المعارف ، ١٩٦٨) ص ٧٩

١٩ - المرجع نفسه ، ص ٧٩

٢٠ - راجع : دراسات في الأدب الإسلامي للاستاذ محمد خلف الله أحمد ص ٣٥ ، شمات من عبر الأدب للدكتور محمد سرحان ص ١٠٤ ط ٢

٢١ - الحين : الهلاك

٢٢ - دلامه بغرور : أي أن الشيطان خدعهم وغرهم وزين لهم محاربة لمسلمين فاسلمهم للهلاك راجع : د . محمد عبد المنعم خلفي الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام ، (بيروت ، دار الكتاب اللبناني)

٢٣ - المرجع نفسه ، ص ٤٧

٢٤ - تاريخ الشعر السياسي للاستاذ أحمد الشايب . الأدب في موكب الحضارة الإسلامية . مصطفى الشكعة . د . خلفي المرجع السابق ، ص ٥٧

٢٥ - التطور والتجديد في الشعر الأموي . ص ١٦ . د . شوقي صيف . الأدب في موكب الحضارة الإسلامية ص ٦٣

٢٦ - د . عبد الحميد يونس : الظاهر بيفرس في الأدب الشعبي ص ٣١

٢٧ - زكي مبارك : الدايح النبوية ، ص ٦٥

٢٨ - المرجع نفسه ، ص ٢٩٩

٢٩ - المرجع نفسه ، ص ٢٩٩

٣٠ - د . عبد الحميد يونس : المرجع السابق ، ص ٢٣

٣١ - المرجع نفسه ، ص ٣٥

٣٢ - المرجع نفسه ، ص ٢٧